يحمل بنيل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر يجب لها في الشهر ثلاثة الاف مثقال وكان يرد الزهرا من اجباد والحمق في كل ثالث من الايام الف ومائة حمل وكان فيها حمامان واحد للقصر وثان للعامة وذكر بعض اهل الخدمة في الزهرا انه قدر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة الف دينار مدة من خمسة وعشرين عاما التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتداها لانه توفي في سنة خمسين فحصل جميع الانفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال قال وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وحسن وعلي بن جعفر الاسكندراني وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير انتهى وقال بعض ثقاة المورخين انه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير قال وكان عدد السواري المجلوبة من افريقية الف سارية وثلاث عشرة سارية ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية واهدى اليه ملك الروم مائة واربعين سارية وسايرها من مقاطع الاندلس طركونة وغيرها فالرخام المجزع من رية والابيض من غيرها والوردي والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس واما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه اليه احمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الاسقف القادم من ايليا واما الحوض الصغير الاخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلبه احمد من الشام وقيل من القسطنطينية مع ربيع الاسقف ايضا وقالوا انه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله وحمل من مكان الى مكان حتى وصل في البحر ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمونس وجعل عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم لم يتكل الناصر فيه على امين غيره وكان يخبز على ايامه في كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة وقيل اكثر الى غير ذلك مما يطول تتبعه قال وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية اثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يوميذ من الكور والقرى خمسة الاف الف واربعمائة الف وثمانين الف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة الف وخمسة وستين الف دينار واما اخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان وقد سبق هذا كله وانما كررته لقول بعضهم اثر حكايته له ما صورته وقيل ان مبلغ تحصيل النفقة في بنيان الزهرا مائة مدي من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة وقيل ان مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا وستة اقفزة من الدراهم المذكورة واتصل بنيان الزهرا ايام الناصر خمسا وعشرين سنة شطر خلافته ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها وكانت خمسة عشر عاما واشهر فسبحان الباقي بعد فناء الخلق لا اله الا هو انتهى ٥ وقال ابن حيان الحياني والشيخ في المطمح كان الناصر كلفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانباط اميائها واستجلابها من ابعد بقاعها وتخليد الاثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة فافضى به الاغراق في ذلك الى ان ابتنى مدينة الزهرا البناء الشايع ذكره الذايع فخره المنتشر في الارض خبره قال واستفرغ وسعه في تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جمع متوالية فاراد القاضي منذر ان يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالانابة والرجعة فابتدا اول خطبته بقوله تعالى اتبنون بكل ريع اية تعبثون الى قوله تعالى تكن من الواعظين ثم وصله بقوله فمتاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء ومضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والاسراف في الانفاق عليه بكلام جزل وقول فصل قال الحاكي فجرى فيه طلقا وانتزع فيه قوله تعالى افمن اسس بنيانه الى اخر الاية الحكيم واتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير من فجائه والدعا الى الزهد في هذه الدار الفانية والحض على اعتزالها والرفض لها والندب الى الاعراض عنها والاقصار عن طلب اللذات ونهي النفس عن اتباع هواها فاسهب في ذلك كله واضاف اليه من اي القران ما يطابقه وجلب من الحديث والاثر ما يشاكله حتى اذكر من حضره من الناس وخشعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا واعلنوا التضرع الى الله في التوبة والابتهال في المغفرة واخذ خليفتهم من ذلك باوفر حظ وقد علم انه المقصود به فبكى وندم على ما سلف له من فرطه واستعاذ بالله من سخطه الا انه وجد على منذر لغلظ ما قرعه به فشكى ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر وقال والله لقد تعمدني منذر بخطبته وما عني بها غيري فاسرف علي وافرط في تقريعي ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني واستشاط غيظا عليه فاقسم ان لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة فجعل يلتزم صلاتها وراء احمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهرا وقال له الحكم فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه اذ كرهته فزجره وانتهره وقال له امثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه لا ام لك يعزل لارضا نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد هذا ما لا يكون واني لاستحيي من الله ان لا اجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر في ورعه وصدقه ولكنه احرجني فاقسمت ولوددت اني اجد سبيلا الى كفارة يميني بملكي بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله فما اظننا نعتاض منه ابدا وقيل ان الحكم اعتذر عما قال منذر وقال له يا امير المومنين انه رجل صالح وما اراد الا خيرا ولو راى ما انفقت وحسن تلك البنية لعذرك فامر حينيذ الناصر بالقصور ففرشت وفرش كذلك المجلس باصناف فرش الديباج وامر بالاطعمة وقد احضر العلماء وغيرهم من الامراء وعمر بهم المجلس فدخل منذر في اخرهم فاوما اليه الناصر ان يقعد بقربه فقال يا امير المومنين انما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس ولا تخطى الرقاب فجلس في اخر الناس وعليه ثياب رثة ثم ذكر هذا القايل بعد هذا من كلام المنذر ما ياتي قريبا وتحفظ الناس اخرجه الناصر فامر

القاضي منذر المذكور بالبروز الى الاستسقاء بالناس فتاهب لذلك وصام بين يديه اياما ثلاثة تنفلا وانابة ورهبة واجتمع له الناس في مصلى الربض بقرطبة بارزين الى الله تعالى في جمع عظيم وصعد الخليفة الناصر في اعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ويشاركهم في الخروج الى الله تعالى والضراعة له فابطا القاضي حتى اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلى ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا متخشعا وقام ليخطب فلما راى بدار الناس الى ارتقابه واستكانتهم من خيفة الله واخباتهم له وابتهالهم اليه رقت نفسه وغلبته عيناه فاستعبر وبكى حينا ثم افتتح خطبته بان قال يا ايها الناس سلام عليكم ثم سكت ووقف شبه الحصر ولم يك من عادته فنظر بعضهم الى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما اراد بقوله ثم اندفع تاليا لقوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة الى رحيم ثم قال استغفروا ربكم انه كان غفارا استغفروا ربكم ثم توبوا اليه وتزلفوا بالاعمال الصالحة لديه قال الحاكي فضج الناس بالبكاء وجاروا بالدعاء ومضى على تمام خطبته ففزع النفوس بوعظه وانبعث الاخلاص بتذكيره فلم ينقض النهار حتى ارسل الله السماء بماء منهمر روى الثرى وطرد المحل وسكن الازل والله لطيف بعباده وكان لمنذر في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب ومنه ان قال يوما وقد سرح طرفه في ملاء الناس عندما شخصوا اليه بابصارهم فهتف بهم كالمنادي يا ايها الناس وكررها عليهم مشيرا بيده في نواحيهم انتم الفقرا الى الله الى بعزيز فاشتد وجد الناس وانطلقت اعينهم بالبكاء ومضى في خطبته ومنه ان الخليفة الناصر طلبه مرة للاستسقاء واشتد عزمه عليه فتسابق الناس المصلى فقال للرسول وكان من خواص الناس ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا فقال له ما راينا قط اخشع منه في يومنا هذا انه منتبذ حاير منفرد بنفسه لابس اخشن الثياب مفترش التراب وقد رمد به على راسه وعلى لحيته وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول هذه ناصيتي بيدك اتراك تعذب الرعية وانت احكم الحاكمين لن يفوتك شيء مني قال الحاكي فتهلل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله وقال يا غلام احمل الممطر معك فقد اذن الله تعالى بالسقيا اذا خشع جبار الارض فقد رحم جبار السماء وكان كما قال فلم ينصرف الناس الا عن السقيا وكان منذر شديد الصلابة في احكامه والمهابة في اقضيته وقوة الخلوع والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده لا يهاب في ذلك الامير الاعظم فمن دونه قال ابن الحسن النباهي واصله في المطمح وغيره ومن اخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر في انكاره عليه الاسراف في البناء ان الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم الخصوصية التي كانت مايلة على الصرح الممرد المشهور شانه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة انفق عليها مالا جسيما وقرمد سقفها به وجعل سقفها صفرا فاقعة الى بيضا ناصعة تستلب الابصار باشعة نورها وجلس فيها اثر تمامها يوما لاهل مملكته فقال لقرابته ومن حضر من الوزرا واهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدايع الفتانة هل رايتم او سمعتم ملكا كان قبلي فعل مثل هذا او قدر عليه فقالوا لا والله يا امير المومنين وانك لاوحد في شانك كله وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رايناه ولا انتهى الينا خبره فابهجه قولهم وسره وبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو ناكس الراس فلما اخذ مجلسه قال له كالذي قال لقرابته من ذكر السقف المذهب واقتداره على ابداعه فاقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له والله يا امير المومنين ما ظننت ان الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما اتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين قال فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له انظر ما تقول وكيف انزلتني منزلتهم قال نعم اليس الله تعالى يقول ولولا ان يكون الناس امة واحدة الاية فوجم الخليفة واطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله قال الحاكي ثم اقبل على منذر وقال له جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين اجل جزايه وكثر في الناس امثالك فالذي قلت هو الحق وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وامر بنقض سقف القبة واعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها انتهى ما حكاه ابن الحسن النباهي ولنذكر هذه الحكاية وغيرها وان خالف السياق ما سبق وهذا منقول من كلام الحجاري في المسهب في اخبار المغرب فانه اتم فايدة اذ قال رحمه الله دخل منذر بن سعيد يوما على الناصر باني الزهرا وهو منكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه فانشد عبد الرحمن الناصر

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها * من بعدهم فبالسن البنيان
اوما ترى الهرمين قد بقيا وكم * ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شانه * اضحى يدل على عظيم الشان

قال فما ادري اهذا شعره ام تمثل به فان كان شعره فقد بلغ به الى غاية الاحسان وان كان تمثل به فقد استحقه بالتمثيل به في هذا المكان وكان منذر يكثر تعنيته على البنيان ودخل عليه مرة وهو في قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل فيها احتفالا لا اظن ان احدا من الملوك لم يصل اليه فقام منذر خطيبا والمجلس قد غص بارباب الدولة فتلى قوله تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة الاية واتبعها بما يليق بذلك فوجم الملك واظهر الكابة ولم يسعه الا الاحتمال لمنذر ابن سعيد لعظم قدره في علمه ودينه وحضر معه يوما في الزهرا فقام الرئيس ابو عثمان بن ادريس فانشد الناصر قصيدة منها

سيشهد ما ابقيت انك لم تكن * مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى * وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج واطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشدا

يا باني الزهراء مستغرقا * اوقاته فيها اما تمهل
لله ما احسنها رونقا * لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر اذا هب نسيم التذكار

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)